تدوين السنة النبوية الشريفة

بقلم الاستاذ أنس اسماعيل



الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وبعد:

فلقد امتازت هذه الامة بعلو اسنادها وضبط تراثها وحفظه من الضياع ومن الدس والتحريف والتغيير والتبديل وهذا ما لم يتفق لأمة من الأمم غير أمة الاسلام وهو مصداق قوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

القرآن الكريم :

يجمع كتاب السيرة وعلماء السنة بل المسلمون جميعا على أن القرآن لقي من عناية الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ما جعله محفوظا في الصدور ومكتوبا في الرقاق والحجارة واللخاف وغيرها.. ولما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم كان القرآن محفوظا مرتبا لا ينقصه الا جمعه في مصحف واحد.

السنة النبوية :

لا يختلف أحد في أن السنة لم يكن أمرها كذلك وأنها لم تدون تدوينا رسميا كما دوِّن القرآن، ولعل مرجع ذلك قلة الكتبة في ذلك العهد وكثرة السنة القولية والفعلية فتفرغ أولئك الكتبة القليلون لكتابة القرآن الكريم،، وايضاً فان العرب أمة امية كانوا يعتمدون على ذاكرتهم فيما يريدون حفظه، حيث كانوا مطبوعين على الحفظ حتى أن احدهم يجتزى بالسمعة الواحدة.

يقول مصطفى صادق الرافعي متحدثا عن ملكة الحفظ عند العرب:

كانت العرب أمة أمية لا يقرؤون الا ما تخطه الطبيعة ولا يكتبون الا ما يلقنون من معانيها فيأخذون عنها بالحس ويكتبون باللسان في لوح الحافظة فكان كل عربي على قدر وعيه وحفظه - كتابا أو جزءا من كتاب وكانت كل قبيلة بذلك كأنها سجل زمني في احصاء الاخبار والاثار.. ولو أن الكتابة كانت فاشية فيهم ما عدلوا اليها ولا استغنوا عن الحفظ لان سبيل تلك المعاني الطبيعية أن تجيء من أداة طبيعية أيضا حتى تكون عند الخاطر اذا خطر والهاجس اذا بدر وليس لذلك غير اللسان.

يقول ابن عبد البر في جامع بيان العلم بعد أن استعرض اقوال الذين كانوا يمنعون من كتابة الحديث في الصدر الاول:

ومن ذكرنا قوله في هذا الباب فانما ذهب في ذلك مذهب العرب لانهم كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين في ذلك والذين كرهوا الكتابة - كابن عباس والشعبي وابن شهاب والنخعي وقتادة ومن ذهب مذهبهم وجبل جبلتهم - كانوا قد طبعوا على الحفظ.. وهكذا لما كان الصحابة ومن لهم ميزة الحفظ من تلاميذهم يكتفون بالحفظ كان من مصلحة السنة أن يتلقى الراوي عمن يثق به من الحافظين وأن يلقن كل استاذ من يثق بامانته ووعيه من المتعلمين فلما ضعف الحفظ حل محله التدوين والكتابة ومع ذلك فانه في الدور الذي امتاز أهله بالحفظ لم يخل من الكتابة وفي الدور الذي غلبت فيه الكتابة بقي كثير من الممتازين بالحفظ الى زمننا هذا..

وهناك امر جدير بالاهمية منع من التوسع في الكتابة وهو خوف اختلاط بعض اقوال النبي صلى الله عليه وسلم الموجزة الحكيمة بالقران سهوا من غير عمد وبهذا وغيره - مما توسع العلماء في بيانه - نفهم سر النهي عن كتابتها الوارد في صحيح مسلم عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكتبوا عني غير القران ومن كتب شيئا فليمحه».

وهذا لا يمنع أن يكون قد كتب في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم شيء من السنة لا على سبيل التدوين الرسمي كما كان يدون القرآن الكريم.. فهناك نصوص واثار تدل على انه قد وقع كتابة شيء من السنة في العصر النبوي

كقوله عليه الصلاة والسلام: «اكتبوا لابي شاه»(١).

كما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كتب الى ملوك عصره وأمراء جزيرة العرب كتبا يدعوهم فيها الى الاسلام وكان ينفذ مع بعض أمراء سراياه كتبا ويأمرهم أن لا يقرؤها الا بعد أن يجاوزوا موضعا معينا.

كما أن بعض الصحابة كانت لهم صحف يدونون فيها بعض ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التي يسميها بالصادقة أخرج أحمد والبيهقي في المدخل عن أبي هريرة قال: «ماكان احد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني الا عبد الله بن عمرو فقد كان يكتب ولا أكتب».

وكتابة عبد الله بن عمرو استرعت انظار بعض الصحابة الذين قالوا: إنك تكتب عن رسول الله كل ما يقول ورسول الله من يغضب فيقول ما لا يتخذ شرعا عاما فرجع ابن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: «اكتب عني فوالذي نفسي بيده ما خرج من فمي الا حق»(٢).

كما كان عند علي رضي الله عنه صحيفة فيها احكام الدية على العاقلة وغيرها كما أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب لبعض عماله كتبا حددت مقادير الزكاة في الابل والغنم(٣).

والخلاصة أنه وان كانت السنة لم تدون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تدوينا رسميا مستوفيا ومرتبا كتدوين القران الكريم فهذا لا يمنع من السماح بتدوين نصوص من السنة لظروف وملابسات خاصة أو السماح لبعض الصحابة الذين كانوا يكتبون لانفسهم.

عناية الصحابة بالسنة وموقفهم منها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد كانت السنة محل عنايتهم واهتمامهم عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (نضر الله امرءاً سمع مني مقالتي فحفظها ورعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع)(٤)، وفي حديث آخر «الا ليبلغ الشاهد منكم الغائب»(٥).

وهكذا أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته بتبليغ السنة الى من وراءهم مع التثبت فيما يروون «كفى بالمرء اثما أن يحدث بكل ما سمع» فلم يكن

من الصحابة رضوان الله عليهم الا أن جدوا في حمل هذه الامانة وتبليغ هذه الرسالة الى من بعدهم وقد تفرقوا في الامصار واصبحوا محل عناية التابعين فكان التابعون يتتبعون اخبارهم ومواطنهم فيرحل اليهم من يرحل على بعد الشقة وعناء الاسفار، وهذا كله كان عاملا في انتشار الحديث وانتقاله الى جمهور المسلمين..

الكذب والوضع في الحديث :

كان للفتن التي وقعت في الصدر الاول بسبب دسائس أعداء الاسلام اثر كبير في انقسام المسلمين الى طوائف متعددة وأحزاب متعادية وحاول كل حزب ان يؤيد موقفه بالقران والسنة فعمل بعضهم على أن يتأولوا القران على غير حقيقته وان يحملوا النصوص ما لا تحتمله كما حمل بعضهم على أن يضعوا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث تؤيد دعواهم ومن هنا حدث وضع الحديث واختلاط الصحيح منه بالموضوع وأول معنى طرقه الوضاع في الحديث هو فضائل الاشخاص، فوضعوا الاحاديث الكثيرة في فضل أئمتهم ورؤساء أحزابهم.. **(واذا كانت الخلافات السياسية هي السبب المباشر)** في وضع الحديث فلا شك أنه حدث بعد ذلك اسباب اخرى كان لها اثر كبير في اتساع دائرة الاحاديث الموضوعة.

١ - الخلافات السياسية :

فقد انقسمت الفرق السياسية في جرأة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرة وقلة وكانت الرافضة اكثر هذه الفرق كذبا.. وضعوا الاحاديث في فضل علي وآل البيت وكذا وضعوها في ذم الصحابة وخاصة الشيخين رضوان الله عليهم أجمعين.

٢ - الزندقة :

لقد اكتسحت دولة الاسلام عروشا وامارات وكانت قوة الاسلام السياسية والعسكرية، قاضية لم تبق لدى أولئك الموتورون أملاً في استعادة سلطانهم الزائل ومجدها المنهار فلم يجدوا أمامهم مجالا للانتقام من الاسلام الا الافساد والدس وكانت السنة أوسع ميدان لهم فجالوا فيه وصالوا متسترين بالتشيع احيانا وبالزهد والتصوف احيانا وبالفلسفة والحكمة احيانا.

وهكذا دس هؤلاء الزنادقة آلافا من الاحاديث في العقائد والاخلاص والحلال والحرام وقد أقر زنديق أمام «المهدى» بأنه وضع مائة حديث تجول في أيدى الناس ولما قدم عبد الكريم ابن ابي العوجاء للقتل أعترف بانه وضع اربعة آلاف حديث يحرم فيها الحلال ويحلل فيها الحرام.

٣ - **العصبية للجنس والقبيلة واللغة والبلد** ونحو ذلك حيث وضعوا أحاديث في فضائلها أو في ذم غيرها.

٤ - **انتشار القصص والوعظ** وقد تولى ذلك قصاص لا يخافون الله فحملهم الاغراب ورغبتهم في أن يميلوا وجه العامة اليهم على أن يضعوا القصص المكذوبة وينسبونها الى النبي صلى الله عليه وسلم.

٥ - **الخلافات الفقهية والكلامية** : حيث نزع الجهال والفسقة من أتباع المذاهب الفقهية والكلامية الى تأييد مذهبهم بأحاديث مكذوبة.

٦ - **الجهل بالدين مع الرغبة في الخير :**

وهو صنيع كثير من الزهاد والعباد والذين كانوا يحتسبون وضعهم للأحاديث في الترغيب والترهيب ظنا منهم أنهم يتقربون الى الله ويخدمون الاسلام ويحببون في العبادات والطاعات.

٧ - **التقرب الى الملوك والامراء بما يوافق اهوائهم:**

ومن أمثلة ذلك ما فعله غياث بن ابراهيم عند المهدى وهو يلعب بالحمام فروى له الحديث المشهور: (لا سبق الا في نصل أو حافر) وزاد فيه أو جناح أرضاء للمهدي.

ولكن الله سبحانه هيأ لدينه العلماء الاثبات والائمة الحفاظ في كل مصر وعصر يذبون عن شريعة الله تحريف المحرفين ويجردون سنته صلى الله عليه وسلم من كل ما خالطها من دس وتحريف.. فوضعوا تلك الموازين الدقيقة والقواعد الحكيمة التي لم يسبقوا الى مثلها، استطاعوا بها أن يميزوا بين الصحيح والسقيم فكانوا بحق أول من وضع قواعد النقد العلمي الدقيق للأخبار والمرويات بين امم الارض كلها واليك اخي القارىء بيان الخطوات التي ساروا عليها في سبيل النقد حتى انقذوا السنة مما دبر لها من كيد.

اولا : اسناد الحديث :

لم يكن الصحابة رضي الله عنهم يشك بعضهم في بعض ولم يكن التابعون يتوقفون عن قبول اي حديث يرويه صحابي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقعت الفتنة وقام اليهودى الخاسر عبد الله بن سبأ بدعوته الاثمة التي بناها على فكرة التشيع الغالي ومن ذلك الوقت اخذ الدس على السنة ينتشر ويربو عصرا بعد عصر، عندئذ بدأ العلماء من الصحابة والتابعين يتحرون في نقل الاحاديث ولا يقبلون منها الا ما عرفوا طريقها ورواتها واطمأنوا الى ثقتهم وعدالتهم يقول ابن سيرين فيما يرويه عنه الامام مسلم في مقدمة صحيحه:

«لم يكونوا يسألون عن الاسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر الى اهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم».

وقد ابتدأ هذا التثبت منذ عهد صغار الصحابة الذين تأخرت وفاتهم عن زمن الفتنة فقد قال ابن عباس: انا كنا اذا سمعنا رجلا يقول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته ابصارنا وأصغينا اليه بأذاننا فلما ركب الناس الصعب والذبول لم نأخذ من الناس الا ما نعرف، وكذا اخذ التابعون بالمطالبة بالاسناد حين فشا الكذب يقول ابو العالية: كنا نسمع الحديث عن الصحابة فلا نرضى حتى نركب اليهم فنسمعه منهم.

ويقول الزهري : «الاسناد من الدين ولولا الاسناد لقال فيه من شاء ما شاء» ويقول ابن المبارك: «بيننا وبين القوم القوائم» يعني الاسناد.. انظر مقدمة صحيح مسلم.

ثانيا : التوثق من الاحاديث :

وذلك بالرجوع الى الصحابة والتابعين وائمة هذا الفن وقد كان من عناية الله بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم أن مد في اعمار عدد من الصحابة وفقهائهم ليكونوا مرجعا يهتدى الناس بهديهم فلما وقع الكذب لجأ الناس الى هؤلاء الصحابة يسألونهم ماعندهم أولا ويستفتونهم فيما يسمعونه من احاديث وآثار.. ولهذا الغرض كثرت رحلات التابعين بل بعض الصحابة أيضا من مصر الى مصر ليسمعوا الأحاديث الثابتة من الرواة الثقاة.

ثالثا : نقد الرواة وبيان حالهم :

وهذا باب واسع وفن عظيم وحصل منه العلماء الى تمييز الصحيح من السقيم والقوي من الضعيف وقد ابلوا فيه بلاء حسنا وتتبعوا الرواة ودرسوا حياتهم وتاريخهم وسيرتهم وما خفي من أمرهم وما ظهر ولم تأخذهم في الله لومة لائم ولم يمنعهم عن تجريح الرواة والتشهير بهم ورع ولا حرج قيل ليحيى ابن سعيد القطان: اما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماؤك عند الله يوم القيامة فقال: لأن يكون هؤلاء خصمي أحب الي من أن يكون خصمي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لم لم تذب الكذب عن حديثي.

وقد وضعوا لذلك قواعد ساروا عليها فمن يؤخذ عنه ومن لا يؤخذ .. ومن يكتب له ومن لا يكتب.

رابعا : وضع قواعد عامة لتقسيم الحديث وتمييزه :

وذلك أنهم قسموا الحديث الى صحيح وحسن وضعيف ووضعوا لمعرفة ذلك قواعد، وكذلك وضعوا قواعد لمعرفة الموضوع وذكروا له علامات يعرف بها.

ثمار هذه الجهود :

كان من ثمار هذه الجهود الموفقة في حفظ السنة وصيانتها ما يلي:

١ – تدوين السنة وهي اذا لم تدون رسميا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقد كانت محفوظة في الصدور ونقلها الصحابة الى التابعين مشافهة وتلقينا هذا الى جانب بعض التدوين القليل من بعض الصحابة.

وأول من فكر في الجمع والتدوين من التابعين عمر بن عبد العزيز فكتب الى ابى بكر بن حزم عامله وقاضيه على المدينة، انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتب فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، وكذلك كتب الى اهل الآفاق: انظروا الى حديث رسول الله فاجمعوه.

واجمع تدوين حصل في تلك الفترة تم على يد الامام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٢٤هـ وبذلك وضع الزهري حجر الاساس في تدوين السنة في كتب خاصة، ثم شاع التدوين في الجيل الذي يلي جيل الزهري وكان اول من جمعه.

– في مكة ابن جريج المتوفى سنة ١٥٠هـ وابن اسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ.

– في المدينة سعيد بن عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ والربيع بن صبيح المتوفى

١٦٠هـ. والامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ.
- في البصرة حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٧٦هـ.
- في الكوفة سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١هـ.
- في الشام ابو عمرو الاوزاعي المتوفى سنة ١٥٦هـ.
- في واسط هشيم المتوفى سنة ١٨٨هـ.
- في خراسان عبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ.
- في اليمن معمر المتوفى سنة ١٥٣هـ.
- في الرى جرير بن عبد الحميد المتوفى سنة ١٨٨هـ.

وكذلك فعل سفيان بن عينية المتوفى سنة ١٩٨هـ والليث بن سعد المتوفى سنة ١٧هـ. وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ.

وكان صنيعهم في التدوين ان يجمعوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مختلطا بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين مع ضم الابواب بعضها الى بعض في كتاب واحد.

ثم جاء القرن الثالث فكان أزهى عصور السنّة وأسعدها بأئمة الحديث وتآليفهم العظيمة الخالدة فقد ابتدأ التأليف في هذا القرن على طريقة المسانيد وهي جمع ما يروى عن الصحابي في باب واحد رغم تعدد الموضوع وأول من فعل ذلك (عبد الله بن موسى العبسى الكوفي) ومسدد البصري واسد بن موسى ونعيم بن حماد الخزاعي ثم أقتفى اثرهم الحفاظ فصنف الامام أحمد مسنده المشهور وكذلك فعل اسحاق ابن راهويه وعثمان بن ابي شيبة وغيره.. وكانت طريقتهم في التأليف ان يفردوا حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن اقوال الصحابة وفتاوى التابعين ولكنهم كانوا يمزجون فيها الصحيح بغيره.. ثم جاء امام المحدثين محمد بن اسماعيل (البخاري) المتوفى سنة ٢٥٦هـ فنحى منها التأليف منحى جديدا يقتصر على الحديث الصحيح فقط دون ماعداه فألف كتاب الجامع الصحيح وتبعه في طريقته الامام مسلم بن الحجاج القشيري المتوفى سنة ٢٦١هـ وتبعهما بعد ذلك كثيرون فألفت بعدهما كتب كثيرة من أهمها سنن ابى داود المتوفى سنة ٢٧٥هـ وسنن النسائي المتوفى ٣٠٣هـ وجامع الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩هـ وسنن ابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٣هـ وقد

جمع هؤلاء الائمة في مصنفاتهم كل مصنفات الائمة السابقين.

ثم جاء القرن الرابع فلم يزد رجاله على رجال القرن الثالث شيئا جديدا الا قليلا مما استدركوه عليهم وكل صنعهم جمع ما جمعه من سبقهم والاعتماد على نقدهم والاكثار من طرق الحديث ومن أشهرهم في هذا العصر الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠هـ ألف معاجمه الثلاثة: الكبير والاوسط والصغير ومنهم الدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥هـ الف سننه المشهورة وابن حبان البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ وابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١هـ والطحاوي المتوفى سنة ٣٢١هـ وبهذا تم تدوين السنة وجمعها وتمييز صحيحها من غيره ولم يكن لمن تلاهم الا بعض الاستدراكات على كتب الصحاح كمستدرك الحاكم على الصحيحين مثلا.

٢ -علم مصطلح الحديث :

كما كان من ثمار تلك الجهود المباركة ان دونت القواعد التي وضعها العلماء اثناء حركتهم لمقاومة حركة الوضع التي قسموا فيها الحديث وميزوه وبذلك كان عندهم علم مصطلح الحديث الذي يضع القواعد العلمية لتصحيح الاخبار وهي أصح ماعرف في التاريخ من قواعد علمية للرواية بل كان علماؤنا رحمهم الله هم أول من وضع هذه القواعد على اساس علمي لا مجال بعده للحيطة والتثبت.. وقد نهج على منوال علماء الحديث علماء السلف في الميادين العلمية الاخرى كالتاريخ والفقه والتفسير واللغة والادب فكانت المؤلفات العلمية في العصور الاولى مسندة بالسند المتصل الى قائلها في كل مسألة وفي كل بحث حتى أن كتب العلماء ذاتها تناقلها تلاميذهم عنهم بالسند المتصل جيلا بعد جيل وهذه ميزة لا توجد في مؤلفات الأمم الاخرى حتى ولا في كتبهم المقدسة.. اعترف بذلك الباحثون المنصفون من القوم.

قال الحافظ محمد بن حاتم بن المظفر :

ان الله كرم هذه الامة وشرفها وفضلها بالاسناد وليس لأحد من الأمم قديمها وحديثها اسناد موصول انما هو صحف في أيديهم وقد خلطوا بكتبهم اخبارهم فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والانجيل وبين ما الحقوه من الاخبار التي اتخذوها عن غير الثقافة وهذه الامة الشريفة زادها الله شرفا

بنبيها صلى الله عليه وسلم انما تقص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه بالصدق والامانة عن مثله حتى تتناهى اخبارهم ثم يبحثون أشد البحث متى يعرفوا الاحفظ فالاحفظ والاضبط فالأضبط والاطول مجالسة لمن فوقه ممن كان اقصر ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها واكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطوا حروفه ويعدوه عدا فهذا من فضل الله على هذه الامة.

الخصائص الكبري للسيوطى.

ومن ثمار تلك الجهود المباركة ايضا علم الجرح والتعديل وهو علم يبحث فيه عن احوال الرواة وامانتهم وثقتهم وعدالتهم وضبطهم أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان.. وقد أدى الى هذا حرص العلماء على الوقوف على احوال الرواة حتى يميزوا بين الصحيح من غيره.. وهو علم جليل لا يعرف له مثيل في الأمم الاخرى.

الهوامـــش

(١) أخرجه الجماعة.

(٢) ابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/٧٦ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابو داود والترمذي.

(٥) ابن عبد البر في الجامع ١/٤١ .